تذكير بالمراحل الكبرى لاكتساب اللغة

مقدمة :

بالنسبة للأرطوفوني، لا تنفصل دراسة اضطراب اللغة عن أمرين اثنين هما مهد هذه الدراسة.
هي من جهة، لا تنفصل عن دراسة **بنية** اللغة (اللغات وسيأتي تفصيل ذلك) structure de la langue، وكيفية **اشتغال** اللغة fonctionnement de la langue و هو ما نجده في درس اللسانيات الذي يعطي وصفا دقيقا لوحدات اللغة الصغرى و الكبرى، ووظائفها (علاقاتها) داخل النظام اللغوي.
و هي من جهة أخرى، لا تستقل عن دراسة الاكتساب السليم (العادي) للغة لدى الطفل، وتيرة، و مراحل عمرية، وذلك من الميلاد وحتى سن السادسة، بل و حتى السابعة وما بعدها، ذلك أن كل حُكم على أي إنتاج لغوي (كلام)، ينبغي أن يستند إلى معيار سواء critère de normalité، و معيار السواء يؤخذ من وتيرة الاكتساب التي نجدها عند الأقران، ومن الاشتغال السليم الذي وصفه علم اللسان لدى الأغلبية من مستعملي اللغة المدروسة.
من أجل هذه الاعتبارات ارتأينا إدراج هذا الجزء من الدرس، الذي نُذكّر فيه بالمراحل الكبرى لاكتساب اللغة لدى الطفل.

I. مرحلة ما قبل اللغة: (0-11 شهر)

سُمّيت هذه المرحلة بمرحلة ما **قبل اللغة** لأن الطفل فيها، كما يعلم الجميع، **لا يتكلم**. لكن ليس من الصحيح أن نُفكّر في أن الطفل فيها **لا يتصل**، ما دام المحيط **يتصل** مع الطفل والطفل **يتفاعل، يستجيب**.

فالغائب في هذه المرحلة ليس الاتصال، لكن **الأداة الاصطلاحية، اللغة المقطعية** التي سيكتسبها الطفل عبر مسار طويل، ضمن عملية تفاعل. هي تلك **الوحدات** المنتظمة من الصغرى إلى الكبرى، التي يعطيها انتظامُها واشتغالُها صفة النظام Système، وهي: الأصوات اللغوية Sons، الصواتم Phonèmes، المباني صرفية Morphèmes، الكلمات Mots، التراكيب Syntagmes، الجُمل Phrases، الخطاب Discours.

1. **مرحلة ما قبل اللغة من حيث الإنتاج (التعبير):** من الميلاد إلى 11 شهرا، تظهر و تنمو وسائل تعبير الطفل متدرّجة من حيث التركيب Complexité ومن حيث قربها (تشابهها) من لغة الراشد:

- **صرخة الميلاد:** أساسية في حياة المولود. تدفع السائل الأمينوسي خارج مجرى التنفس و تُحرّر هذا الأخير ليبدأ التنفس الضروري للحياة، كما تعبّر صرخة الميلاد عن قلق " تغيير الوسط" (التحليل النفسي)، من وسط آمن هو الحياة الرَحِمِيّة، إلى وسط مُكَلّف، مُتعب، مُقلق، هو العالم الخارجي.

يُنسب للإمام علي بن أبي طالب هذان البيتان المعبران عن قلق صرخة الميلاد :

ولدتك أمك يابن آدم باكيا ♣ والناس حولك يضحكون سرورا
فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا ♣ في يوم موتك، ضاحكا مسرورا

- يستمرّ المولود الرضيع في إصدار أصوات انعكاسية réactionnels، إعاشية végétatifs، تشبه الأنين، ترافق النشاط الفيزيولوجي لأحشائه عموما، خاصة ما تعلق منه بجهازه الهضمي.
- **<u>في الشهرين من عمره</u>:** الأصوات التي كانت تشبه الأنين، تصبح تصويتات vocalises يصدرها وهو في وضعية استلقاء، تتناسب مع النمو المستمر لتحكم الرضيع في أعضاء التصويت. ما يميزها أنها تتخلص من طابع الأنين الانعكاسي الذي كان يرافق تغيّراته الفيزيولوجية.
- **<u>5 أشهر ظهور الـ Gazouillis</u>** : يكتمل التحكم في وضيفة التصويت ويصبح الرضيع قادرا على تعديل وتحوير صوته modulation من حيث شدّته، مُدته، ونغمته. بالتقريب، نقول أن صوت الطفل بدأ يقترب من شكل يُشبه الغناء، أو شيئا يشبه اللعب بالصوت الحنجري.
- **<u>6 أشهر ظهور المناغاة Babillage</u>** : بالتناسب مع نمو عضلات الشفاه واللسان بفعل عملية الرضاعة. المناغاة هي صوت حنجري مرفق بإصدارات فمية تشبه الفونيمات، تأتي في شكل تتال مكرر لصوامت و مصوتات ta ta ta، ba ba ba، ma ma ma، تكون في البداية جد ثرية، و منوعة، تشمل حتى أصوات لا تنتمي إلى النظام الصوتي للغة الطفل، مثل ظهور الـ /ع/ لدى طفل فرنسي و الـ /P/ لدى طفل عربي، بينما يعجز الراشد غالبا عن إصدار تلك الأصوات لأن جهاز نطقه قد تخصص لغويا، بفعل الممارسة.
- **<u>9 أشهر ظهور المناغاة المركبة</u>** : تزداد المناغاة تعقيدا se complexifie حيث تنمو الإنتاجات من متتاليات مقطعية مكرّرة ta ta ta إلى متتاليات مقطعية غير مكررة pa ti ta ti. في المناغاة المركبة، لوحظ تشابه بين إصدارات الطفل articulations وتنغيماته intonations من جهة، و ملفوظات و تنغيمات الراشدين في محيطه، كأن لغة الطفل بدأت تقترب من لغة الراشد بالمحاكاة. في هذه المرحلة كذلك، يبدأ الجمع بين التعبير الصوتي والحركة geste ممهدا الطريق لظهور الإشارة اليدوية pointage (الإشارة بالإصبع إلى الأشياء) التي تظهر مع بداية السنة الثانية.

2. مرحلة ما قبل اللغة من حيث الاستقبال :

- أول مؤشرات الاستقبال السليم للغة، بُرعُم الفهم اللغوي، هو قدرة الطفل المبكرة على التمييز بين الصوت البشري voix وصوت آخر son، بين صوتين بشريين deux voix، وبين صوتين deux sons. تُدرس هذه القدرة بواسطة **نموذج الجِدّة والتعوّد** paradigme nouveauté/habituation، الذي يعتمد على استجابات الانتباه، الالتفات، الكفّ عن النشاط، العودة للنشاط، حينما تُقدَّم للطفل مثيرات صوتية. فانطباع الطفل بالمثيرات و التفاعل المتباين معها، دليل على أنه يميز بينها. وهذا التمييز، مؤشر على أن الطفل يسير في طريق صحيح لاستقبال اللغة و فهمها.
- **<u>في 7 أشهر</u>**: عُثر على كلمات مفهومة في بعض السياقات: مثلا كلمة /هَمْ Ham/ أثناء الأكل. عند سماع الكلمة يلتفت بعض الأطفال عادة إلى جهة <u>مقعد الأكل</u> أو إلى جهة <u>تواجد الصحن</u> أو شيء من هذا القبيل.

- **10 أشهر:** يفهم الأطفال حوالي 30 كلمة، عندما تقال لهم ضمن سياق (السياق هنا اجتماعي–لغوي خاص بالعنايات اليومية التي تُقدم للطفل: نظافة، أكل، نوم، لعب الخ). كما يمكنهم التعرّف، خارج السياق، على بعض الكلمات المعروفة لديهم. بمعنى، يمكن أن يفهم الطفل كلمة خاصة **بالنوم** وهو في الحمّام أو في المطبخ، كما يمكن أن يفهم كلمة خاصة **بالأكل** وهو في غرفة النوم. يعرف الراشد أن الطفل قد فهم الكلمة لمّا ينظر إلى مخاطبه وهو يسمع الكلمة، لمّا يحاول الإعادة (بصفة تقريبية)، أو لمّا ينظر في الاتجاه الذي يتفق مع دلالة الكلمة. هذا علما أن الطفل لا يتكلم بعدُ في هذه السن، أي لا يملك مفردات إنتاجية vocabulaire expressif، فنقول أن مفرداته تلك، التي استطاع التعرّف عليها، مفردات استقبالية vocabulaire réceptif.

II. مرحلة الملفوظات ذات الكلمة الواحدة (12 – 20 شهرا)

مرحلة الملفوظات ذات الكلمة الواحدة من حيث التعبير

- **12 شهرا، ظهور الكلمات الأولى:** مع فروق فردية معتبرة تقدّما و تأخّرا (عادة + أو – شهرين). الكلمة في هذه المرحلة تكون معزولة وتستعمل من قبل الطفل محل الجملة، حيث نفس الملفوظ (الكلمة) يستعمل في وضعيات مختلفة، يؤوّل دلالتها الراشد حسب : السياق، هيأة الطفل، حالته، نبرة صوته، وغيرها.
- **18 شهرا، تسارع وتيرة الاكتساب** : حيث تصل كلمات الطفل من 50 إلى 170 كلمة في الفترة الممتدة بين 16 و20 شهرا، و أكثر من 200 كلمة بعد 20 شهرا. (التباين في الأشهر والأرقام المقدّمة في هذه الفقرة ناتج عن الفروق الفردية بين الأطفال في وتيرة النمو، وعدد الكلمات المكتسبة. فكان مؤشر معدّل المرحلة هو 18 شهرا، ويمكن للطالب اللجوء إلى معدلات في عدد الكلمات التي ترد في الدراسات النمائية التي يطلع عليها للوقوف على مؤشرات تقديرية يستدل بها في تدخله العيادي)

أمّا ما يخص نوع الكلمات المستعملة، فيختلف من طفل لآخر. ففي حين يميل بعض الأطفال لاستعمال أسماء الأشياء (ماما، بابا، ببّا)، يبدأ آخرون باستعمال مختلف أنواع الطلبات demandes, sollicitations (هتّي/أعطني، هذّي/احملني، همّي/ آكل/ باآ/أخرجني)، أو أفعال النفي négations (ماها بمعنى لا أريد).

مرحلة الملفوظات ذات الكلمة الواحدة من حيث الفهم :

يفهم الأطفال حوالي 30 كلمة في 10 أشهر وحوالي 200 كلمة في 16 شهرا. بعدها يتحسن الفهم بزيادة عدد كلمات الاستقبال، غير أن فهم الطفل لهذه الكلمات يبقى مدّة أطول متأثرا بنبرة صوت الإنسان الذي يخاطبه، مما يجعل الكلمات أكثر فهما لما تُستعمل من قِبل أشخاص مألوفين لدى الطفل (غالبا أفراد عائلته، أو المربية التي ترافقه فترة معتبرة).

III.مرحلة الملفوظات ذات الكلمتين (20 شهرا – 36 شهرا)

تبدأ هذه المرحلة في حوالي 20 شهرا، حيث يلاحظ أيضا على الطفل تحسن في نطق الكلمات (phonologie)

سؤال محوري : إذا كان طفل هذه المرحلة يُنتج ملفوظات ذات كلمتين يعبّر بهما محل الجملة، فما هما هاتان الكلمتين اللتين ينتجهما الطفل في هذه المرحلة ؟ بعبارة أخرى، ما نوع الكلمتين المكونتين لكل ملفوظ énoncé من ملفوظات الطفل في هذه المرحلة ؟ هذا من جهة. (*للوقوف على معنى الملفوظ/المنطوق énoncé، انظر درس مستويات التحليل اللساني في مقياس اللسانيات للسنة الثانية*)

من جهة أخرى، هل للكلمتين المنتجتين في هذه المرحلة، علاقة ثابتة تربط بينهما، يمكن الكشف عنها والتعرّف عليها ؟ أم أن الطفل ينتج كلمتين فقط بصفة عشوائية، جزافية، وغير ثابتة.

للإجابة على التساؤل سالف الذكر، بيّنت الدراسات النمائية أن ملفوظات الطفل في هذه المرحلة، تتبع في معظمها، **القواعد التركيبية** للغته : (pas beau، وليس beau pas)، (est là وليس là est). (*حول المستوى التركيبي للغة (اللغات)، انظر مقياس اللسانيات للسنة الثانية*)

أما فيما يخص **نوع الكلمات** المستعملة، فيرى الدارسون أن ملفوظات الطفل في هذه المرحلة تتكون من نوعين من الكلمات : كلمات معجمية (من المعجم) أي من المفردات ذات المحتوى mots à contenu، (*تحمل محتوى دلالي في ذاتها*) مثل (gateau, manger, ballon) و **كلمات مفصلية** mots pivots وهي عموما من الأدوات (*الأداة كلمة لا تحمل محتوى دلالي (معنى) إذا كانت منعزلة (واو العطف، فاء العطف)، و إنما تستمد دلالتها من وظيفتها، أي من إقامتها للعلاقة بين الوحدات الأخرى*)، حيث يمكن أن تتألف ملفوظات الطفل في هذه المرحلة إمّا من كلمة مفصلية و كلمة معجمية (pas manger، no dodo، no papa، là bébé) و إمّا من كلمتين معجميتين (papa pati بابا ذهب، bébé dodo ببيبي ينام، sosu papa حذاء أبي، sosu mama حذاء أمي).

يبدو بصورة واضحة أن الزوج المكوّن من الكلمة المفصل و الكلمة المفردة يُمكن الطفل من توليد ملفوظات جديدة، لأغراض الاتصال، بواسطة الاستبدال (*انظر محور الاستبدال في درس اللسانيات للسنة الثانية*): (pas beau, pas petit, pas là, pas dodo)، في انتظار إطالة الملفوظات إلى كلمة ثالثة في مرحلة لاحقة من النمو.

كما يمكن الافتراض أن الكلمتين المعجميتين تسمحان بإنتاج ملفوظات **بالتجاور** juxtaposition، و هذه تمهد لاستعمال لاحق لملفوظات **بالتنسيق** " coordination، ثم في مرحلة تالية باستعمال جُمل مركبة **بالتبعية** subordination، (*انظر مرحلة الجُملة*).